

الجزائر العثمانية-سياسيا- في مذكرات القناصل البريطانيين

مذكرات إليزابيث بلانكلي بروغتون ابنة قنصل بريطانيا بالجزائر من 1806م إلى 1812م. نموذجاً

Ottoman Algeria- politically- in the memoirs of British consuls Diary of Elizabeth Blankley Broughton, daughter of the British consul in Algeria from 1806 to 1812 a model.

محمد الأمين بوحلوفة *

majrit711@gmail.com ، جامعة غليزان أحمد زبانه ،¹

تاريخ الاستلام: 2021/12/25 تاريخ القبول: 2022/09/28 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

إن إعادة قراءة تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، من خلال المذكرات أو اليوميات الخاصة بالشخصيات الأوربية (رحالة، قناصل، أسرى، رجال دين... الخ) له أهمية كبيرة، ولعل مذكرة ابنة قنصل بريطانيا في الجزائر هي إحدى النماذج التي أمدتنا صورة عن الحياة السياسية، وتكمن قيمة هذه المذكرة في أن القنصل البريطاني كان مقرباً من دائرة صنع القرار في الجزائر خلال تلك الفترة (كان صديق أحد الدايات)، في المقابل لا يجب أن ننكر أن ما تم تدوينه من وقائع في مختلف الجوانب كان مبنياً على خلفية تاريخية مثل الصراع بين المسيحية والإسلام، التحضر والتوحش، القرصنة... الخ. إن ما جاء في المذكرة من وقائع عكس الأزمة السياسية والاقتصادية للجزائر العثمانية في الفترة الأخيرة من عمرها، ومهد لانهايار كلي تلاه إحتلال فرنسي كان قطيعة مع فترة عثمانية لها وعليها، وجعل الجزائر تدخل مرحلة حرجة في تاريخها المعاصر لازالت تبعاته نعيشها إلى اليوم.

كلمات مفتاحية: الجزائر العثمانية، مذكرات، إليزابيث بلانكلي بروغتون، بريطانيا العظمى. القناصل.

Abstract: Re-reading the history of Algeria in the Ottoman period through the memoirs or diaries of European personalities (travelers, consuls, prisoners, clerics ... etc.) is of great importance, and perhaps the note of the daughter of the British Consul in Algeria is one of the models that provided us almost completely about the history of Algeria in the Ottoman period. Political, economic and social life, on the other hand, we must not deny that

the facts that were recorded in various aspects were based on a historical background such as the conflict between Christianity and Islam, urbanization and savagery, piracy...etc. The facts stated in the memorandum reflected the political and economic crisis of Ottoman Algeria in the last period of its life, and paved the way for a total collapse followed by French colonialism.

Keywords: Ottoman Algeria, England, Elizabeth Broughton, European notes, Henry Blanckley, political situations, Algerian economy, Ottoman Algerian society.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تعد المذكرات الشخصية من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون لكتابة التاريخ، فهي تمدنا بمعلومات وأحداث عن حقبة زمنية قد تنعدم المصادر التي تؤرخ لها، لهذا يلجأ الباحث إليها. لم يظهر أسلوب المذكرات الشخصية في الحضارة الإسلامية ولم يعرفه الإنسان العربي إلا من خلال الثقافة الغربية التي كان فيها الفرد يهتم بكتابة يومياته خاصة الإنجليز الذين أصبحوا مع حلول القرن السادس عشر يكتبون يومياتهم بعيدا عن وطنهم الأم إنجلترا وهم في أمريكا الشمالية، فالكثير من المذكرات اعتمد عليها الباحثون في الولايات المتحدة الأمريكية لكتابة جزء من تاريخهم المظلم خلال تلك الفترة.

بالعودة إلى الفترة العثمانية، نجد أن الكتابات المحلية التي أرخت للأحداث السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية شحيحة وهذا نتيجة عدم تشجيع السلطة لكتابة تاريخها في الجزائر، فالمطالع للأحداث خاصة في فترة الثلاثين سنة الأخيرة من عمر الإيالة، قد يجد صعوبة في إعادة كتابة بعض الوقائع المهمة وفهمها، بل وي طرح تساؤلات ملحة عن سبب تجاهل السلطة لهذا الدور المهم وهو الإشراف على الحياة العلمية في الجزائر وتأطيرها؟ و عدم الاهتمام بكتابة تاريخها وفق منظورها السلطوي كما كانت تفعل باقي الدول في المشرق خلال الفترة الوسيطة.

تمثل تقارير وكتابات القناصل الأوربيين في الجزائر في الفترة العثمانية مادة تاريخية غنية جدا للمؤرخ، فهي تعكس واقعا ونظرة مغايرة لنظرة سكان الجزائر، ولعل ما نلاحظه هو أن مختلف الباحثين لا يركزون على تلك التقارير واستنتاجها لتشكيل صورة عن الجزائر آنذاك، ولعل السبب إما عائق اللغة أو النظرة السلبية المسبقة عن ما جاء فيها¹. يعد كتاب " ستة سنوات من الإقامة في الجزائر" من المذكرات الشخصية التي كتبها ابنة قنصل بريطانيا بعد أن تم تعيين والدها هنري ستينفورد بلانكلي² وكيلا وقنصلا في الفترة من 1806م إلى 1812م وقد سجل لنا أحداثا سياسية واقتصادية مهمة جدا، ومن هذا يمكن طرح الإشكالية التالية: ما هي الصورة التي قدمتها هذه المذكرة عن وضع الجزائر سياسيا؟ وأين تكمن قيمة هذه الأحداث تاريخيا؟ وهل يمكن اعتبار ما جاء في المذكرات من وقائع هي صورة حقيقية للجزائر آنذاك تحلت فيها الكاتبة بالموضوعية؟ وهل هذه صورة لا نجد لها إلا في هذه المذكرة بحكم أن القنصل كان مقربا من مركز القرار بل وصديق الداي في بعض الأحيان؟ كل هذا سنحاول الإجابة عنه كالآتي:

1- قراءة في الوضع السياسي للإيالة : بحلول القرن التاسع عشر كانت إيالة الجزائر قد دخلت

مرحلة الثلاثين سنة الأخيرة من عمرها، ولم يطرأ أي تغيير على منظومة الحكم التي كانت قائمة على ثلاث قوى رئيسية، الإنكشارية أو الجيش، مؤسسة الديوان أو ما تعرف اليوم برئاسة الجمهورية، والثالثة الداي وجمهوره أو الرئيس، لكن هذا لم يمنع من ظهور طائفة رياس البحر الذين كانوا يتمتعون بنفوذ داخل تلك المنظومة.

بالعودة إلى مذكرة ابنة القنصل البريطاني التي صدرت في شكل كتاب سنة 1838م عن دار

سوندرز وأوتلي بلندن في بريطانيا، والتي حملت عنوان " ستة سنوات من الإقامة في الجزائر SIX

¹ كان أبو القاسم سعد الله قد أشار في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي إلى أن تقارير وكتابات القناصل الأوربيين هي مصادر لمعرفة تاريخ الجزائر في الفترة العثمانية، لكن حكمه عليها كان سلبيا ذاتيا بعيدا عن الموضوعية العلمية التاريخية التي تعتمد على التمحيص والنقد.

² هنري ستينفورد بلانكلي قنصل بريطانيا من الفترة 1806م إلى 1812م. يعد من بين القناصل الناجحين في مهامهم الدبلوماسية، وقد تميزت فترته بانتقال الشراكة الاقتصادية للجزائر من فرنسا إلى بريطانيا أو ما يعرف بحقوق إستغلال حصن الباستيون في الشرق.

YEARS RESIDENCE in ALGIERS لصاحبته إليزابيث بروغتون³، والتي قمت بترجمتها من الإنجليزية إلى العربية⁴ وهي قيد النشر، يلاحظ أن الكتاب في الأصل هو عبارة عن مخطوطة ليوميات زوجة القنصل وليس لإبنته وهو ما صرحت به البنت عندما قالت "مقتطفات من يوميات الأحداث التي احتفظت بها والدي أثناء إقامتها بالجزائر"⁵ قامت الإبنة بنشرها مع زيادة بعض الأحداث التي احتفظت بها ذاكرتها كما قالت "أضفت بعضا من ذكرياتي والتي أشعر أنه من الضروري التحدث عنها"⁶. بقيت المخطوطة الأصلية لأكثر من 25 سنة عند عائلة القنصل، حتى قررت إبنته إليزابيث نشرها ولعل توقيت نشرها كان بسبب الاحتلال الفرنسي، حيث أرادت إعطاء صورة عن الجزائر⁷ للمجتمع الإنجليزي من منطلق شاهد عيان عايش فترة من عمر ذلك البلد خلال العهد التركي.

2- الوضع السياسي على المستوى الداخلي: بعد وصول القنصل من مالطا إلى الجزائر في

أكتوبر 1806م، وقف بين يدي الداى لتحتيته وقد رفض القنصل بلانكلي بروتوكول تقبيل اليد⁸، الأمر

³ حول السيرة الذاتية لإليزابيث بلانكلي بشكل مفصل أنظر:

-Elisabeth Broughton. Six ans de résidence à Alger (1806-1812). Traduction Alain Blondy. Editions Bouchène. 1er édition (15 avril 2011).P17.

⁴ صدرت النسخة الفرنسية سنة 2011 عن دار بوشان بفرنسا، وقد قام بترجمتها الباحث الفرنسي ألان بلوندي.

⁵ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS1806-1812. SAUNDERS AND OTLEY. LONDON.1838.Pp 1.2 .

⁶ Ibid .P02

⁷ كثيرة هي الكتابات الإنجليزية التي ألفها رحالة وأسرى عن الجزائر خلال القرن 17م و18 والتي أصبحت مادة تستعمل في تصوير الجزائر على أنها أرض البرابرة المتوحشين خاصة وأن تلك الكتابات تميزت بسرد وتصوير معاناة الأسرى الرهيبة . حول هذا أنظر:

-Nabil Matar .Turks, Moors, and Englishmen in the age of discovery .Columbia University Press,USA. 2000.p78.

⁸ حول موضوع بروتوكول تقبيل القناصل لأيدي الدايات أنظر:

- Grangchamp.p. Le baisemain des Consuls à la Cour des Beys de Tunis. Revu Africaine. A RNOLET, IMPRIMEUR-LIBRAIRE. CONSTANTINE. 1945 .volume89.pp291-292.

الذي أزعج الداوي⁹ لكن سرعان ما قبل الأمر. حتى وإن كانت مسألة تقبيل اليد تعد تقليدا دبلوماسيا رسميا في تلك الفترة، فإن جل القناصل كانوا يتبعونه، لكن القنصل البريطاني رفض ذلك ولعلها إشارة مهمة على أن الدول الأوروبية بدأت تتبع سياسة جديدة مع الإيالة، وهي عدم الخضوع لتقاليد الماضي. مما احتوته المذكرة قضية ترسيم الداوي الذي كانت السلطة المركزية في الباب العالي تشرف عليه سوريا، رغم أنها تركت للجزائريين الحرية في تعيين من يريدون، حيث "شهد القصر فرحا كبيرا عند استقبال رداء الشرف الممنوح من السلطان العثماني كعلامة على استحسانه لسلوك الداوي. وتم إطلاق تسعة عشرة طلقة مدفع تحية بهذه المناسبة"¹⁰. مثلما ذكرنا سابقا كانت طائفة رياس البحر تتدخل في الحكم وهو ما نلاحظه "عندما أبحر رياس حميدو في الفرقاطة الجزائرية، وبالكاد غادر الميناء عندما رأينا سفينة أخرى أرسلت وراؤه لإعادته. أنا أفهم أنه ليس كل شيء على ما يرام في هذا الحي"¹¹. فالكاتبة تلمح إلى وجود صراع داخلي بين الفاعلين داخل الحكم، ولا يمكن التكهن بطبيعة هذا الصراع الذي لم يكن يخرج عن عدم الرضا على سياسة الداوي، لكن يمكن الخروج بحكم هو أن الرايس حميدو لم يكن متوافقا مع السلطة، فالكاتبة تذكر شهادة في هذه المذكرة حيث تقول "الرايس كان جزائريًا (وليس تركيًا)، وقائدا متميزا للغاية على الرغم من أنه لا يراقب نفسه بشدة بالقرآن... لقد كان واحداً من أرقى الرجال الذين رأيتهم في حياتي، وكان جريئاً مثل أحد الأسود الأصليين. كان واحدا من أقرب جيراننا في هذا البلد... الأتراك دائماً ينظرون إليه ويتحدثون عنه بجزء صغير من الحسد والغيرة، وقد أظهر كرهه لهم على كل ما فعلوه وحتى جميع أبناء وطنه كانوا ينظرون إلى أتباع السلطان العظيم على أنهم مغتصبون وطغاة وعصابات"¹² هذه الشهادة تبين أن الرايس حميدو لم يكن مرغوبا فيه داخل الأوساط السياسية وهو أيضا لم يكن من داعمي الأتراك في الجزائر.

⁹ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS.p04.

¹⁰ Ibid.p09.

¹¹ Ibid .P62.

¹² Ibid .pP 199.200.

في جانب آخر، كانت السلطة تستعمل للحفاظ على ديمومتها أسلوب التكتّم عن الأحداث التي تثير سخط السكان خاصة أثناء الأوبئة، كي لا ينتفض السكان ضدها، حيث تقول ابنة القنصل " فأنا أعرف أن الموت سيكون مصير أي شخص وبمقتضى القانون، يُبلغ عن وجود هذا الاضطراب الفظيع، وعادة ما يمر شهر حتى يذهب "المربط" ويبلغ الداى بناء على إرادته وسروره وأن يجعل هذه المعرفة عامة، بعدها فقط يمكن التحدث والإفلات من العقاب"¹³. نلاحظ أن الشخصية الدينية المتمثلة في المربط أو الرجل الصالح هو من يقوم بهذا الفعل وهو دليل على الرمزية الدينية في قبول قضاء الله وقدره.

شكلت الانقلابات في إيالة الجزائر سمة طاغية على منظومة الحكم، حيث شهدت عدة مؤامرات كان الهدف منها الإطاحة بالداى فقد "حدثت معارضة في الخفاء نسبت إلى أحمد باشا الذي خطط لها علنا"¹⁴. بالإضافة إلى أن القوى الأوروبية الفاعلة مثل بريطانيا كان من مصالحها أن يستمر الداى الذي يضمن لها استمرارية تلك المصالح وهو ما عبرت عليه " أبي كان من أنصاره في تسير الشؤون العامة"¹⁵، وما يجب الإشارة له أن الكاتبة أوعزت الفشل في سياسة حكم الداى إليه وإلى رعيته حينما قالت " وبدأت إخفاقاته بسبب الجهل الذي تشاركه مع رعاياه"¹⁶ وهو أمر غير واقعي لأن الرعية آنذاك كانت تعيش التهميش، وكانت في قطيعة تامة ومع السلطة خاصة في الفترة الأخيرة.

لم تتوانى السلطة في كبح جماح المتمردين والمشكوك فيهم، عن طريق العنف ولو كان وشائياً، حيث يظهر مما أوردته ابنة القنصل. " وصلنا تقرير ونحن هنا، مفاده أن حارس الباشا والعديد من الرجال الآخرين ذوي النفوذ سيُعدمون"¹⁷، فهذه القضية التي ستكشف تورط قبطان ميناء وهران الذي أراد أن يعصفي حساباته مع هاته المجموعة، وهو ما نسميه تضارب المصالح داخل أجهزة الدولة "فالرجل الذي بلغ

¹³ Ibid .P61.

¹⁴ Ibid .p82.

¹⁵ Ibid .p82.

¹⁶ Ibid .p82.

¹⁷ Ibid.p92.

ضد حارس الباشا ومائة رجل آخرين كان قبطاناً في ميناء وهران، كما اكتشف أنه تصرف بدافع الغدر والخبث الخسيس¹⁸.

كانت الجبهة السياسية الداخلية للإيالة متصدعة وغير مستقرة ، بل كان كل بايلك يحاول التمرد ويخطط للإطاحة بسلطة الداى في العاصمة، وهو ما أكدته الرواية التي ذكرتها ابنة القنصل " إن المعسكر سوف لن يزحف إلى هنا، وهو ما كان يفزعنا منذ أيام، حيث تم قمع التمرد من طرف القوات الموالية للداى، والتي قتلت المحرض الرئيسي باى قسنطينة"¹⁹، كذلك تظهر هذه الشهادة أن الداى كان يتمتع بأنصار داخل معسكر باى قسنطينة الذين قاموا بقتله "فبينما كان يصلي دخل الأتراك المسجد، وهاجموه فأسقط ثلاثة منهم، وبترت ذراعه اليمنى بعدما ركض نحو المرباط للاحتباء، ولكن القتلة لم يحترموا ذلك الملجأ المقدس، فقد أطلقوا النار حتى على المرباط نفسه لرفضه التحلي عن الباى الذي قتلوه. بعدها ذهبوا للبحث عن الآغا الذي فرّ نحو المسجد فوجدوه وقتلوه"²⁰. كل هذا لا يمنع من إبطال الحكم الذي أصدرناه سابقاً أن الوضع الداخلي السياسي كان آيلاً للسقوط ولعل هذه الحوادث أولى إشارات.

لم تتوقف الانقلابات ضد الداى، وقد نجحت إحداها وبينت مدى الصراع الحاصل حول السلطة وعدم تماسك النظام، "فالأترك قد انتفضوا وكانوا في طريقهم لقتل الداى...تم سماع روايات أخرى حوالى الساعة الحادية عشر من المدينة، تقول إن الباشا أحمد²¹ قد أصيب بطلق ناري وهو على شرفة منزل يملكه يهودي عندما كان يحاول الفرار، وقد تمكن من الجري على شرفات العديد من المنازل في قصر زوجته الذي كان قد هرب إليه أولاً، وعند مطاردته من عدد كثير من الأشخاص صعد إلى الشرفة، فأطلق النار عليه شاب تركي في جسده وساقه، بعدها ألقاه الجنود من الشرفة إلى الشارع فقطعوا رأسه وحملوه إلى خليفته الداى الجديد الذي يُدعى علي باشا²² ليراه"²³. لقد برهن هذا الصراع على مدى هشاشة منظومة

¹⁸ Ibid .p92.

¹⁹ Ibid P93.

²⁰ Ibid P93.

²¹ أحمد بن علي خوجة داي الجزائر من الفترة 1806 إلى 1808 م ، وقد أطاح به تمرد قاده علي خوجة الغسال.

²² علي بن محمد أو علي بورصالي خوجة ، داي الجزائر من 1808 إلى 1809م وقد حكم بضعة أشهر .

الحكم في الجزائر خلال هذه الفترة حتى أصبح غسال موتى داياً للجزائر ! وهو الأمر الذي دفع بالقتل البريطاني بأن يصفه "يبدو رجلاً عجوزاً وغيبياً، ويجهل حتى وظيفة القنصل"²⁴.

بالعودة إلى تفاصيل المؤامرة ضد الداوي أحمد، أمدتنا المذكرة برواية حصرية، كشفت لنا الجهة الحقيقية التي نفذت الانقلاب وكيف كانت المناصب الإدارية تمنح في الإيالة، ما يظهر لنا حجم الفساد السياسي في الجزائر آنذاك، فتقول الكاتبة "أن سيدي عمر التركي... تورط في مؤامرة مع الداوي علي باشا الحالي، وغُلق حتى الموت. هذا سيدي عمر رجل ذو نفوذ كبير في الحكومة السابقة وليضمن تعاونه وضع (علي) على رأس الإيالة، وقد وعده بأن يكافئه بمنحه مناصباً شرف وكرامة في البلاد."²⁵، "بعد أن تم تنصيب علي في قمة ما كان يرغب فيه، طلب سيدي عمر مكافأته المتوقعة، فقدم له الباشا مناصباً واسمه قايد أو حاكم بلدة أو مقاطعة بعيدة. كان سيدي عمر غاضباً جداً من هذه المكافأة التي كانت أقل بكثير من توقعاته، وأمام وجه الباشا مرق الترقية إلى قطع وخرج من القصر، وقد أثار أتباعه الأتراك الكثير التمرد. هذه المؤامرة اكتشفها جواسيس الداوي، فتم القبض على المتآمرين وضربوا بالعصا فتوفي اثنان، أما سيدي عمر فخنق حتى الموت. من المحزن أن أقول إنه (سيدي عمر) تعرض للخيانة من طرف شقيقة زوجته التي أصبحت في صداقة كبيرة مع الداوي الآن، بعد أن تعرفت على كل التفاصيل، فقد عرفت حتى اسم التركي الذي كانوا يعتمون وضعه على العرش، والذي أثبت أنه مؤثر للغاية مع أنصاره"²⁶.

هذه الرواية تظهر أن الفساد كان في أعلى هرم الحكم، حيث المؤامرات والإنقلابات هي من تصنع الداوي الذي يحكم الجزائر، وهو عامل ضعف في الإيالة، كذلك كانت المناصب الإدارية تمنح حسب الولاءات وهو ما لاحظناه بين سيدي عمر والداوي علي، كذلك حمى الانقلاب لم تتوقف إذ بتاريخ 16 جانفي 1809م "تعرض إثنين من الأتراك للضرب حتى اعترفوا أنهم كانوا يخططون للتمرد، أحدهم كان سيعين خزناجي والآخر يعين في منصب رفيع أما الشخص الذي كان يعتزم خلافة الداوي فقد هرب،

²³ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS .pp-108.109.

²⁴ Ibid P108.

²⁵ Ibid.p113.

²⁶ Ibid Pp.113.114.

وجعل دار المرابط ملجأ له والتي لم تنتهك"²⁷ و "مع ذلك أرسل الداوي اثنين من الأتراك اللذان أطلقا النار عليه، فأثار ذلك غضب المرابط لدرجة أنه علق راية سوداء"²⁸. تظهر لنا هذه الشهادة أن نظام الحكم كان هشاً وكان من السهل إحداث تغيير فيه بأربعة أشخاص ! .

لم يدم حكم الداوي علي سوى أربعة أشهر حيث تعرض لعملية انقلابية مميتة، إذ تذكر لنا المذكرة رواية هي أن " الآغا هرب ليحتمي نفسه من الجيش. بعد أن صعدنا إلى الشرفة لمخنا المدينة وهي مغطاة بألاف من النسوة ... بعد مرور بعض الوقت، رأينا علماً مشابهاً لعلم تونس يرفع على القصر. بعد ذلك بفترة وجيزة، سمعنا نيران المدفع وأستبدل علم مكة ! الأخضر بشكل راقٍ بالعلم الأحمر فوق القصر، والذي أعلن أن دايا جديدا قد صعد على العرش. يقال إن علي باشا الذي حكم فقط منذ السابع من نوفمبر الماضي، توفي صباح اليوم بالشم، وأن حاجي علي هو الذي خلفه، واسمه علي أيضاً"²⁹ هذه الرواية المثيرة والدقيقة تبين لنا بجلاء نفوذ الجيش الانكشاري وأنه هو الذي كان وراء هذا الانقلاب، بل وتذهب رواية أخرى إلى أبعد من ذلك، عندما تظهر لنا طريقة إعدام الداوي والتفاصيل التي جرت فيها " تم تقديم فنجان من القهوة يحتوي على مسحوق الماس المطحون إلى الباشا المرحوم السابق، واحتراما كما قالوا رفض أن يشربها، مدعيا أنه لم يختار أن يكون متواطفا في قتل نفسه، لذلك رفض بأدب وشرف ما يريده الأتراك، مفضلاً أن يقوده الفرسان كمتهم إلى مكان الإعدام المعتاد حيث تم خنقه، ومع ذلك كان هناك تمييز في قضيته، لأنه خُنق على الفور، بدلاً من الخضوع للتصفية القاسية المعتادة، حيث يتم إعطاء الضحية كوبين من الماء وفي المرة الثالثة يتم إطباق الحبل"³⁰ .

²⁷ Ibid P121.

²⁸ Ibid P121.

²⁹ Ibid Pp124.125.

³⁰ Ibid.pp125.126.

إذا كان للجيش الانكشاري دور في تعيين الداوي السابق، فإن الديوان كان يحظى بسلطة تحوله تغيير وإزاحة الموظفين في جهاز الحكم ، وهو ما حدث فعلا حيث أنه في " يوم 6 فيفري - ... هذا الصباح الديوان غير حارس الباشا من مكانه والعديد من التغييرات الأخرى التي أدخلت على الحكومة. "31 .

كذلك سجلت لنا المذكرة مؤامرة للإطاحة بالداوي، إذ بتاريخ " 16 نوفمبر 1811م خنق خمسة رجال ذو نفوذ، ما منع حدوث أي ثورة في الوقت الحاضر. يبدو أن الداوي كان على علم بالمؤامرة أثناء وجود "فورتوني"32 هنا ، لكنه لم يرى من الحكمة إعطاء مرافقي سفارته انطبعا سلبيا عن شعبيته واستقرار عرشه، ونحن متأكدون من أن قلقه كان شديدا ليرحلوا. يقدم اكتشاف المؤامرة ذريعة للوحشية والهيجان الذي أظهره الداوي في مناسبة واحدة أو مناسبتين، والذي بالتأكيد لا يميل إلى إعطاء القبطان فانسيتارت انطبعا رفيعا للمعاملة البربرية.33 هذه الرواية وما حملته في جانب المؤامرة أظهرت أن السلطة في إيالة الجزائر وعلى رأسها الداوي كان دائما يحاول أن يظهر للقوى الدولية الفاعلة آنذاك (بريطانيا) أن سلطته وشعبيته مقبولة لدى الناس وهو خلاف الواقع .

كذلك لم يسلم الموالمون للداوي السابق من بطش الإنقلابيين لأن " كل من كان يشتهه فيه بأنه عدو لهذه الهيئة الخارجة عن القانون سعى للاختباء، إلى أن توقفت تلك الأحداث وعلقت راية النبي الخضراء على شرفة القصر"34 ، يظهر هذا المقطع الأخير أحد المراسيم الخاصة بعد تولي الداوي الحكم وهو تعليق علم أو راية خضراء على القصر وقد عبرت عليها ابنة القنصل براءة النبي ولعلها كناية عن حكم الإسلام.

من بين الروايات حول الصراعات التي حفلت بها المذكرة في الجانب السياسي الصراع بين الأتراك والقبائل وروايتها التي تقول أن " هناك تقرير مفاده أن القائد (زعيم القبائل)35 ، كان قد أثار استياء في

31 Ibid P122.

32 فورتوني إسم لسفينة بريطانية.

33 ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS . P185.

34 Ibid P108.

35 القبائل وهم البربر أو زواوة.

الأوساط العليا مع بعض من أتباعه، فأمر بالركوب على متن سفينة معتقداً أنهم سينقلونه إلى بلده، وبعد أن أبحرت بهم خلال الليلة الماضية عادت هذا الصباح دون القائد أو أتباعه ، ويفترض أنهم ألقوا في البحر³⁶. هذه الرواية التي تفردت بها الكاتبة، تظهر مدى الصراع الحاصل بين سكان الجزائر والسلطة الحاكمة وأن الحاكم منفصل عن المحكوم، والطرق التي يتم بها التخلص من إزعاجات الزعماء المحليين، وتظهر لنا رواية أخرى وجود انتفاضة في بلاد القبائل " الباشا في حالة حرب مع حاكم فليسا³⁷ جزء من البلد الذي يجب أن يكون تابعا له ولكنه كان في بعض الأوقات في حالة تمرد ضد هيمنة الداى، بالأمس كان عنده خمسة عشر رأساً لأبناء فليسا القبائل. قطعت بعد أن احتفظ بها في السلاسل لفترة طويلة."³⁸.

مما جاء في المذكرة أيضا هو تقلد اليهود بعض المناصب والوظائف، مثل وظيفة الترجمان، ففي إحدى المناسبات " تمنى الداى أن تتم ترجمة الرسالة (في الأصل باللغة الإنجليزية) إلى اللغة التركية والتي قد يرضي صاحب السمو الإطلاع عليها بنفسه، والشخص الوحيد القادر على تنفيذ أوامر الداى كان يهودياً يسمى ابن شععون ، الذي قضى جزءاً من حياته في جبل طارق ويُعتبر بارعاً في الأدب الإنجليزي، لذا فقد تم تكليفه برسالة سيدنا"³⁹. فعلى ذكر المناصب جاءت رواية في المذكرة تبين أن بعض الأشخاص كانوا يتمتعون بنفوذ قوي لدرجة أنهم عمّروا في مناصبهم طويلا حيث " تمت تنحية وزير البحرية من منصبه...بعد أن استمتع بهذا الوضع الأكثر نفوذا لفترة طويلة دامت ثمانية عشر عاما. كان أيضاً في السر متحالف مع باي قسنطينة...في النهاية تم التضحية به من قبل صديقه الذي تسلل خارج جبل المشنقة"⁴⁰.

³⁶ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS

.p111.

³⁷ منطقة تقع في القبائل بين ثيقرت غربا وآزفون شرقا، ويحده جنوبا عرش آت جناد في الجنوب الشرقي، وعرش آت واقتون في الجنوب الغربي، ومن أشهر قبائله : آت أززاره ، وآت حيمد.

³⁸ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS .p216.

³⁹ Ibid P.p177.

⁴⁰ Ibid .pp217.218.

2-الوضع السياسي على المستوى المغربي: مغاربا كان الصراع التونسي الجزائري على أشده،

ولم تعرف الساحة استقرارا، فالمذكرة أظهرت لنا جانبا من هذا الصراع، إذ في " الأول من أبريل - اندلعت الحرب بين إيالة وتونس ، وغادر عدة آلاف من الجنود لمقارعة العدو"⁴¹ و " وفقاً للتقرير ، تفوق الجزائريون على التونسيين"⁴² وهذه الهزيمة كانت ساحقة جدا حتى ظهرت " فرحة كبيرة في مدينة الجزائر ، والأعلام مرفوعة على جميع الحصون ، لقد هرب ستة مائة تركي من التونسيين إلى الجيش الجزائري ، ومن المتوقع أن يصل إلى الجزائر ثلاثة وأربعون بغلا محملا برؤوس الرجال"⁴³. كانت إيالة الجزائر قوة مؤثرة في السياسة الداخلية التونسية وعملت على تسيير وضع تونس وفق ما يخدم إستقرار المنطقة سياسيا، فالمذكرة حفظت لنا جزئية مهمة في مدى حضور الجزائريين في تسيير تونس داخليا، وهنا نذكر ما ورد في المذكرة إذ " غادر الآغا مع الشاب باي تونس، لتثبيته على عرش أسلافه (الخلافة في تونس وراثية ، وليس اختيارية كما في الجزائر). كانت والدة هذا الشاب امرأة فرنسية وواحدة من حريم باي تونس الراحل. عندما كان يحتضر، طلب من هذه السيدة الحامل أن تغادر إلى هولندا وجهاز لها سفينة فيها من كل صنف من الثروات، وعندما أرادت الذهاب أعطها صندوقاً فضياً مع أوامر صريحة بعدم إبلاغ الطفل بمحتوياته إلى يبلغ و يصبح شابا. ظل ذلك الطفل يجهل ما حواه الصندوق وفقاً للتوجيهات السابقة، حتى بلغ من العمر ستة عشرة عامًا، وأخبرته والدته من هو والده كما عرضت عليه محتويات الصندوق، والتي تحتوي على أوراق مكتوبة ومختومة وموقعة من قبل المرحوم باي تونس، والتي اعترفت بأنه وريث عرش تونس. وفور وفاة والدته ذهب إلى تونس لتأكيد مزاعمه بعد أن دخل إلى الإسلام. الباي الذي كان في السلطة لم يستقيل من عرشه، بل سجنه واستعبده في تونس، وهو الموقف الذي أجبره على الهروب واللجوء إلى الجزائر حتى اندلاع الحرب مع تونس، وأقنع الداوي بمعاينة باي تونس، وأكد مزاعمه بشأن عرش والده."⁴⁴ فهذه الرواية تبين لنا جهود الجزائر في تنصيب الشاب بايا على تونس، وكيف وفرت كل الظروف

⁴¹ Ibid P33.

⁴² Ibid p35.

⁴³ Ibid. P37.

⁴⁴ Ibid. P37.

لإستقباله وتدعيم⁴⁵ موقفه، ولعل هذه السياسة (المساهمة في الاستقرار السياسي) لازالت إلى اليوم تتبعها الجزائر مع تونس. كذلك تظهر لنا المذكرة مدى حرص الجزائر على الإطاحة بالعرش التونسي عن طريق التحالف مع إنجلترا، حيث "اقترح الداى إرسال جيش بري لمساعدة الإنجليز وإرضاء صاحب السمو"⁴⁶. أيضا أظهرت المذكرة مدى تشدد السلطات الجزائرية مع المتعاونين مع إيالة تونس حيث أن "... باي قسنطينة خليفة ووالد زوجته شيخ العرب⁴⁷ تم خنقهما، لأنهم اكتشفوا أنهما كانا ينقلان باستمرار كميات كبيرة من القمح إلى باي تونس، وهو البلد الذي كان معهم في حالة حرب"⁴⁸. لا نخرج عن الإقليم المغاربي، إذ تميزت هذه الفترة بتحسّن العلاقات الجزائرية المغربية، وهو ما أكدته الزيارة الرسمية التي قام بها " ابن شقيق إمبراطور المغرب برفقة حشد كبير،...و يبدو أنه شاب ذو منزلة رفيعة وغني"⁴⁹، كذلك مع إيالة طرابلس التي كانت حريصة على توطيد علاقاتها مع الجزائر ، فقد وصلت سفينة "العميد الساحر" في سرب لأميرة وسفير طرابلس...الذي نزل هنا لصنع السلام بين باشا طرابلس وهذه الإيالة"⁴⁹.

يمكن اعتبار أن أهم شيء حفلت به المذكرة في الجانب السياسي، هو خطة مشروع احتلال الجزائر من طرف بريطانيا، وهي الرواية الحصرية التي تظهر أطماع بريطانيا في شمال إفريقيا، وقد تصادف هذا مع مشروع فرنسا التي أرسلت الجاسوس "بوتان" لملاحظة وتدوين أهم المرافئ والطرق والحصون لمدينة الجزائر، ولعل ما يمكن استنتاجه أن المشروعين الفرنسي والإنجليزي كانا في نفس الوقت، خاصة وأن المنافسة التجارية بين الطرفين كانت قوية جدا في هذه الفترة . بالعودة لمشروع الاحتلال تذكر ابنة القنصل شهادة

⁴⁵ لازال موضوع دور الجزائر العثمانية في إستقرار المنطقة المغاربية يحتاج إلى بحث، خاصة وأن أترك الجزائر كانت لهم تدخلات

كثيرة في تونس وحتى في المغرب.

⁴⁶ Ibid. Pp169.167.

⁴⁷ شيخ العرب منصب سياسي كان يحظى به رجل يكون بمثابة قائد للقبائل العربية المستوطنة حول بايلك قسنطينة، وقد لعبت هذه الشخصية دورا مؤثرا في بداية فترة الاحتلال الفرنسي حيث انخرط بعضهم في سياسة فرنسا ضد الجزائريين.

⁴⁸ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS. p212.

⁴⁹ Ibid.p224.

مفادها أن "...خطة الهيمنة البريطانية على هذا الجزء الخصب والجميل من موريتانيا⁵⁰، هو رفع هؤلاء الوطنيين المعذبين إلى موقعهم الطبيعي في وطنهم الأم وإنشاء نوع من السيادة مثلما هو موجود بين شركة الهند الشرقية والسكان الأصليين. وهكذا، فإن أولئك الذين احتفظوا بمختلف حكومات المقاطعات كإقطاعيات من بريطانيا العظمى كانوا مؤهلين تمامًا وقادرين على إبقاء السكان الأصليين في حالة خضوع تام! ... كم من مرة دخلت واستمعت لهذه الآراء التي تم التخطيط لها بشكل جيد حيث كان قلبي ينبض بالسرور للتفكير في كم سيشاد بأبي من قبل الملك والدولة وهكذا تعاطفت تمامًا مع جميع مخططاته من أجل تعزيز مشروعنا الكبير، حتى أنني كنت برفقته دائمًا على طول الساحل في الحوار المباشر لحديثنا، فاستمع جيدًا لجميع اقتراحاته، واحتفظ بدقة بجميع النقاط التي أشار إليها على أنها الأكثر ملائمة للتأثير في نزول القوات⁵¹، وقد كانت ابنة القنصل متيقنة بنجاح هذا المشروع كون تجربة أبيها "العسكرية الطويلة والنجاح التام لنزول القوات البريطانية والاستيلاء الفوري على جزيرة مينوركا تحت قيادة والذي العزيز والصديق المحترم الراحل السير تشارلز ستيوارت (والد اللورد الحالي ستيوارت دي روشاسي) الذي كان قد نفذها بالكامل بإتباع الخطط التي اتخذها والذي في الجزيرة، كان بمثابة ضمان للنجاح الذي كان يمكن توقعه من أي خطط أو مشورة يوجهها لغزو الجزائر⁵²، بعدها تعزو فشل المشروع إلى عدم تجاوب الملك ومستشاريه لأن اهتمامهم كان منصبًا على "أن سلطة الغال يجب أن تُذل فقط من خلال طرد قواتهم من شبه الجزيرة⁵³". في الختام يمكن أن نقبس مقولة ابنة القنصل عن الوضع السياسي في الجزائر خلال تلك الفترة، بأنه "لا تزال المسائل السياسية في هذا الجزء من العالم غير مستقرة"⁵⁴.

خاتمة: تعتبر الكتابات الأجنبية عن الجزائر في الفترة العثمانية مهمة، وهذا لما تحتويه من وقائع ومعلومات قد لا يجدها الباحث إلا فيها، لكن في الوقت نفسه عليه التحلي بروح النقد لكل ما جاء فيها

⁵⁰ الإسم القديم لمنطقة شمال افريقيا خلال العهد الروماني.

⁵¹ ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS. pP201.202.

⁵² Ibid p202.

⁵³ Ibid p203.

⁵⁴ Ibid P116.

خاصة وأن منطلق تلك الكتابات مبني على أفكار مسبقة عن الشرق، بأنه خارج إطار حلقة التحضر الأوربي، بالإضافة إلى الصراع الديني التاريخي بين الإسلام والمسيحية، وهو ما لاحظناه في المذكرة، لكن رغم ذلك تبقى مثل هذه الشهادات تعبر عن واقع الجزائر في فترة حرجة من تاريخها، الذي عرف تجاذبات سياسية واقتصادية واجتماعية، وهو ما يمكن الخلوص إليه في هذه النقاط التالية:

- كانت الانقلابات السمة الغالبة على الوضع السياسي، فكثيرة هي المؤامرات التي ذهب ضحيتها الدايات، وكذلك القطيعة الكبيرة بين السلطة والسكان ما تسبب في تدهور البلد و بدايات إشارات سقوطه. -عرفت هذه الفترة اختلالا كبيرا على مستوى نظام البايلكات، حيث رأينا كيف كان بعض البايات يتمردون و يحاولون الإطاحة بالسلطة المركزية في الجزائر، مثلما حدث مع باي قسنطينة وهو ما عكس هشاشة النظام .

-على المستوى الخارجي مغاريا كان الصراع التونسي الجزائري قويا بالإضافة إلى تحسن العلاقات الجزائرية المغربية والطرانيسية.

-كانت بعض الأقاليم تتمرد على السلطة المركزية، وهذا ما عرفته منطقة القبائل، الأمر الذي دفع بالسلطة إلى إستعمال العنف لوأد جميع الانتفاضات.

-حرص السلطة على تجميل صورتها أمام القوى العظمى في تلك الفترة، وهذا لإعطاء الشرعية المتمثلة في رضا الرعية على الحاكم.

قائمة المراجع:

- 1-ELIZABETH BROUGHTON. SIX YEARS RESIDENCE IN ALGIERS. SAUNDERS AND OTLEY. LONDON.1838.
- 2-Nabil Matar .Turks, Moors, and Englishmen in the age of discovery .Columbia University Press,USA. 2000.
- 3-Grangchamp.p. Le baisemain des Consuls à la Cour des Beys de Tunis. Revu Africaine. A RNOLET, IMPRIMEUR-LIBRAIRE. CONSTANTINE. 1945 .volume89.